الخروج من التيه بالعمل: قراءة في ومضة "اغتراب" لفاطمة الصادي

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

اغتراب

تضل طريقها بعد تركها لوطنها بحثا عن العِلْمِ فتسترشد بنور "أنّي لا أضيع عمل عامل."

ومضة "اغتراب" للكاتبة المصرية فاطمة الصادي ومضة مكتوبة بضمير الغائب في زمن المضارع، وتركز على لحظة التيه الحالية التي تقع فيها الشخصية، وتسترجع الراوية ما سبق هذه اللحظة من خلال "بعد تركها لوطنها بحثا عن العلم". وهي عبارة تلقي الضوء على تاريخ الشخصية وسماتها: فهذه الشخصية مغتربة عن وطنها، ومن الملاحظ أن وطنها يخلو من العلم الذي تبحث عنه هذه الشخصية، كما أن الراوية لا تستعمل كلمة "موطنها" التي قد تدل على اغتراب داخل الوطن، وإنما "وطنها" التي تعني الخروج خارج هذا الوطن تماما. وهذا الاسترجاع الذي يأتي في ثنايا اللحظة الحاضرة هو الذي يعطي الومضة عنوانها، ويجعلنا ننظر إلى الاغتراب نظرة إيجابية لأن الذات تسعى فيه لتحقيق هدف معين وهو بُعد في المكان فقط.

وعندما نتمعن في التفاصيل الخاصة باللحظة الحاضرة في الومضة، نجد أن الومضة تبدأ بالفعل "تضل" المرتبط بـ "طريقها". والفاعل هنا هو الشخصية ذاتها التي تمثل محور الومضة ويعود عليها الضمير في "طريقها". واستعمال الضمير هنا يمنح الومضة قدرا من التماسك اللغوي والترابط الدلالي. ومن الواضح أن الشخصية كانت تحدد لنفسها طريقا معينا، وكانت تظن أنه طريق العلم الوحيد. ولكنها عندما دخلت التجربة بالفعل وجدت أن الطريق غير الطريق، أو أن هناك عدة طرق، أو أن العلم الذي تبحث عنه متشعب الطرق، الأمر الذي أوقعها في حيرة وجعل الطريق يختلط عليها.

وأمام هذه الحيرة التي تجسد التيه، تحتاج الشخصية إلى الاسترشاد بشيء يجعلها تخرج من التيه إلى درب العلم من جديد، أو بالأحرى إلى تلمس الطريق وسط المعارف المتعددة أو المتضاربة التي ربما نشأت من الجهل الذي أتت منه أو من الانتقال من مكان يخلو فيه العلم الذي تطلبه الشخصية إلى مكان مليء بالعلوم التي تربكها بسبب كثرتها أو تداخلها. ويتحقق هذا الاسترشاد من خلال التناص المباشر مع آية قرآنية: "أنّي لا أضيع عمل عامل". وبالرغم من أن الشخصية ترى في هذه الآية نورا، وأن الثقافة العربية تربط بين العلم والنور، عندما نبحث عن النور مباشرة في هذه الآية لا نجده. فهي آية تحث الإنسان على العمل وتؤكد له أن عمله وجهده لن

يضيعا. وهو تناص يجعلنا ننظر إلى أن العمل المخلص طريقُ الخروج من التيه، خاصة وأن العمل هنا يرتبط بالعلم واكتسابه، وهنا يتحول طلب العلم إلى عمل سيكافَئ صاحبه عليه.

ونظرا لأن حجم الومضة القصصية بوجه عام قصير جدا ولا يحتمل الاقتباس الطويل، فكلمات الومضة هنا 15 كلمة منها 5 كلمات مقتبسة من القرآن، فإنه من الأفضل أن يقتصر الاقتباس على أضيق الحدود، وأن يتحول التناص من اقتباس مباشر إلى تناص غير مباشر أو بالأحرى تناص غير لفظي حرفيا هكذا: أي أن تقوم الكاتبة باستحضار الآية القرآنية من خلال كلمة أو إشارة وإدراجها بنائيا ودلاليا وأسلوبيا في متن النص، لأن الآية في هذه الحالة ستكون حاضرة بروحها وليس بنصها. فأضعف أنواع التناص هو الاقتباس المباشر. التناص يهدف في الأساس إلى إنشاء علاقة بين نصين: نص سابق والنص الحالي. وهذه العلاقة تتفاوت في مظهرها ودلالتها من خلال تدرج في العلاقات على متَّصل أو خط ممتد ما بين الانسجام التام في أحد قطبيه إلى التنافر أو التفكيك التام في القطب الآخر وما بينهما من تدرجات تشمل الاستيعابَ والهضمَ والتحويلَ وعكسَ الدلالة ونقضَ جزء من الدلالة وإثباتَ جزء آخر منها، وهكذا.